القصص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم عليه السّلام

أ. أناهيد السميري

اللّقاء السّابع

مدونة علم ينتفع به

www.tafaregdroos.blogspot.com

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكنّ سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصّالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

[سورة البقرة:آية ٢٥٨]

مقدّمة:

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين

نحمد الله حمدا كثيرا طيّبا مُباركا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممّن اقتدى برسله، فسار على سيرهم، ووصل إلى رضا ربّه.

كنّا بفضل الله قد اجتمعنا من أوّل هذا الشّهر حول قصّة إبراهيم عليه السّلام، وتدارسنا ما تيسّر لنا من الموطن الأوّل في سورة البقرة لهذه القصّة العظيمة، وتبيّن لنا أنّ أوّل جملة أتى بها الخبر عن إبراهيم عليه السّلام، كانت جملة مُجملة، فيها أنّ الله ابتلى إبراهيم بكلمات، فما كان من إبراهيم عليه السّلام إلاّ أن أتمّهنّ، فكان بذلك إماما للنّاس شُكْرًا مِنَ الله لهُ لأنّه أتمّ الكلمات.

هذا الموطن الأوّل حُكِي لنا بعده أخبارًا عن بنائه للبيت، وعن أمره بالتّطهير، وفي نفس هذه السّورة العظيمة، أتتنا أخبار أخرى عن إتمامه للكلمات، عن الكلمات الّتي ابتُلي بها، وعن إتمامه لهذه الكلمات.

جاءنا هذا في موضعٍ عجيبٍ من سورة البقرة، وفي مكان لابدّ من التّفكير كثيرا في سياقه، هذه قصّة إبراهيم عليه السّلام والمُحاجّة مع الرّجل الّذي أتاه الله المُلْكَ في الآية ٢٥٨ من سورة البقرة، وهذه الآية الّتي فيها قصّة المُحاجّة، هي بنفسها تحمل معاني كثيرة، والسّياق أيضا يحمل معاني كثيرة، للدّلالة على مكانة إبراهيم عليه السّلام، وعلى رفعة منزلته؛ فنسمع أوّلا الآية الّتي هي موضوع الدّراسة، ثمّ ننتقل إلى السّياق:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

الآية موضوع الدّراسة هي الآية الّتي فيها المُحاجّة آية ٢٥٨ من سورة البقرة، لكن قبل الشّروع في مُناقشة الآية، نحتاج أن نرى سِياقها، لأنّ في سِياقها يَظهر كثيرا من المعاني في الآية، ونرى كيف أنّ هذه القصّة شاهد عل السّياق؛ سنبتدئ السّياق من عند آية الكُرْسِي، نسمع الآيات ثمّ نتأمّل في دلالة السّياق:

[١] [البقرة: ٢٥٨]

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)}

هذا السّياق مشهور ومعروف، وهو سياق آية الكرسي وهذه الآية العظيمة الّتي يعلم مكانتها أهل الإسلام قاطبة، احتوت على صفات العَظَمَةِ والجَلال لربّ العالمين، الدّالّة على استحقاقه سبحانه وتعالى للمحبّة، والتّعظيم، والخضوع، والإجلال، الدّالّة على استحقاقه للأُلوهيّة وحده لا شريك له، ونَلحظ أنّ جميع الصّفات الّتي ذُكرت في هذه الآية باستثناء الخبر عن الكُرسي، جميعها تُدْرَكُ بالنّظر إلى أفعاله سبحانه وتعالى، بالنّظر إلى آثار ربوبيّته سبحانه وتعالى، يعني يُدركها عقل الإدراك، يُدركها صاحب الفِطْرَةِ السّويّة، ابتداء من النّظر إلى دار الدّنيا.

انظر إلى دار الدّنيا وفكّر:

هذه الدّار لها ربّ وصاحب؟ أم يُمكن أن تكون دارا بلا صاحب؟ من المؤكّد أن يكون الجواب الفطري العقلي، الّذي لا ينحاز إلى هَوَى، من المؤكّد أن يكون لكلّ دار لابدّ من ربّ، مادامت عامرة فلابدّ أن يكون لها ربّ، وها هي دُورُ بَنِي فلان، وبَنِي فلان من أهل الدّنيا عامرة لأنّ فلانًا فيها، إذًا دار الدّنيا لابدّ أن يكون لها صاحب، لأنّ هذا هو الّذي يقبله العقل.

فإذَا كُنْتَ ترى هذه الدّار عامرة فهل صاحبها حيّ أم ميّت؟ فما دامت أنّها عامرة وباقية فإنّ صاحبها حيّ، قد كانت عامرة سابقا، وها أنت تعيش وهي عامرة، ولا شيء يدلّ على أنّها ستخرب الآن! فإذًا صاحبها حيّ.

وعَمَارها هذا هل هو مستمرّ يتجدّد؟ أم أنّه كان، وسبق، فبقيت آثار؟ وهذه تلحق هذه تماما مادامت أنّها عامرة فالأمور لابدّ أن تتجدّد فيها، إذًا صاحب الدّار وَرَبَّهَا قائم عليها أم ليس قائما عليها؟ قائم عليها.

فإذًا ماذا تَلحظ في قيامه؟ هل يغفل عنها؟ هل ينام ويتركها؟ لا فأنت تَلْحَظُ في قيامه عليها أنّه {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}.

هل يُشاركه أحد في المُلك فيحكم فيه؟ لا أحد يُشاركه في المُلك. إذًا له مُلك السّماوات والأرض، يحكم فيهما، بل من تمام ملكه أنّه لا أحد يستطيع أن يقترح عليه شيء، {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}

[٢] [البقرة: ٢٥٥_٢٥٧]

وهكذا تأتي إلى صفة العلم، فترى كلّ الشّؤون تشهد على علمه، وترى الخلق لا يمكنهم أن يحيطوا بشيء من علمه، وأنّهم إذَا عرفوا شيئا فإنّما هو من آثار تعليمه إيّاهم.

وترى آثار عُلُوّه، ففطرتك تقول أنّه لابدّ أن يكون عالٍ بذاته، وما تراه من آثار أفعاله، لابدّ أن يكون عالٍ في صفاته، عالٍ في قَهره، فمن ذَا الّذي يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت؟ أو يدفع عن نفسه المرض؟ بل الكلّ مقهور، والله له العلوّ في ذاته، والعلوّ في صفاته، والعلوّ في قهره، وله العظمة التّامّة، والخَلْقُ من تأمّلهم في دار الدّنيا، يرون كلّ هذا بفطرتهم؛ ويأتيهم الخبر أنّه من عظمته أن **{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}** وهذا لا يُعْرَفُ إلاّ من جهة الخَبَرِ.

هذه الآية العظيمة، الّتي يعرفها المسلمون جميعا ويعرفون عظمتها ومكانتها، أَتَى بعدها التّقرير مباشرة **{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}** لا يمكن بعد أن تعرف هذا كلّه عن ربّ العالمين، وتظنّ أنّ هناك حاجة لإكراه النّاس على الدّين، بعدما يُعْلَمُ الحقّ لا حاجة للخلق في الإكراه، فالحقّ واضح وبيّن، **{قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}** فالحالة الكاملة هي حَالَةُ مَنْ يتمسّك بالعُرْوَةِ الوُثْقَى، هي حالة من يعرف الحقّ ويميّزه، فلا يطلب عنه بديلا، لابدّ أن يكفر بالطّاغوت، ويؤمن بالله، فهذا بإذن الله، وبحكم الله كان من النّاجين، فالشّيطان وأعوانه من الكَهَنَةِ، والسّحرة، والمعبودات من دون الله، وكلّ رأس ضلال، إذَا كفر بها المؤمن لابدّ أن يُرْشَدَ إلى الهداية، ويكون بهذا قد استمسك بالعُرْوَةِ وشدّ يده، وقد فاز من تمسّك بالحبل الوثيق المُحْكَمِ، وهذا في الحقيقة من باب التّشبيه والتّمثيل بالشّيء المُدْرَكِ.

فالْعُرْوَةُ هي: الإيمان، أو الإسلام، أو لا إله إلاّ الله، فتُصبح هذه العقيدة مثل العُرْوَةِ الوُثقى لا انفصام لها، لا تنكسر، فالمتمسّك بها، متمسّك بشيء لا يُمكن كسره، ولا انقطاعه.

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} يسمع أقوال الخلق، ويعلم حقائق أحوالهم، سواء كان حال المؤمنين الصّادقين، أو حال الكافرين، أو حال المنافقين.

فإذًا هذه الآية أتت بعد آية الكرسي بمناسبة مهمّة، وهو أنّ الآية السّابقة فيها دلائل الوحدانيّة، وعظمة الخالق سبحانه وتعالى، فلابدّ أن تكون هذه الحقائق سائقة الإنسان العاقل إلى قَبول هذا الدّين الوضح، عقيدة واضحة، شريعة مستقيمة، يكون هذا بالاختيار دون الإجبار، فهم الآن لا يحتاجون أبدا إلى إجبار.

فإذَا فهمنا هذا، سنرى البُشرى لأهل الإيمان الّذين شبّه الله استمساكهم بالعُرْوَةِ الوُثقى، يعني: هيئة المؤمن في ثباته على الإيمان كهيأة من أمسك بعُرْوَةٍ وُثقى من حبل.

كيف هي حالته؟ هو راكب على سفينة، أو راكب أهوالا في البحر وفي البرّ، فأنت تصوّري أهوالا تعصف به وهو ماسك بالعُرْوَةِ الوُثقى، فكأنّه واحد مثلا متدلٍّ من شيء عالي، كيف يحتاط لنفسه؟ يستمسك بأوثق عُرْوَةٍ من حبل متين، مأمون ما ينقطع؛ المؤمن الآن الّذي سيُبشّر بما سيأتي، واحد مؤمن ثابت اليقين، سالم من اضطراب القلب في الدّنيا، وهو ناجي من أن يسقط في الآخرة، فتصوّري هذا المؤمن مثل الّذي استمسك بعُرْوَةٍ حبل متين لا ينفصم، فهو في الدّنيا على الحقّ والبصيرة مهما حاربه من حاربه، وضاربه من ضاربه، وألقى عليه الشّبه من ألقى عليه، فهو غير متأثّر بهذا.

وهنا تأتينا البُشْرَى أنّ {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا} وليّهم يتولاّهم، والمعنى في الوِلاَيَةِ معنى عظيم جدّا، إذَا كان الله عزّ وجلّ وليّهم فلا خوف ولا حزن، فكأنّ {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا} تعليل أنّه {لَا انْفِصَامَ لَهَا} بمعنى: إذَا هُمْ تَولّوا الله، وكفروا بالطّاغوت، وآمنوا بالله، فصار الله وليّهم، فهو سبحانه وتعالى يدفع عنهم الشّبهات، فهم يستمرّون في التّمسّك بالعُرْوَةِ الوُثقى، ويكونوا آمنين من انفصامها، وكلّما زادوا تمسّكا، زادهم الله هدًى.

ولأنّ الله وَلِيُّهُمْ فإنّه ينصرهم، ولاحظوا أنّ النُّصرة هنا هي نُصرة الاعتقاد، قبل النُّصرة الدُّنيويّة، الّتي فيها العزّة على أهل الكُفر، إنّما نُصرة نور البرهان والحقّ، فانظروا {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} إلى نور الحقّ، إلى نور البُرهان، يُخرجهم من الشّبهات والشكّ، وهذا على المعنى المعروف عندنا، أنّ الله يزيد الّذين اهتدوا هدى، لأنّ من يتّبع الإسلام، يُيسّر الله له طريق اليقين، فالّذي يتمسّك بالعروة الوثقى يزيده الله يوما بعد يوم إيمانا ويقينا، وطمأنينة للحقّ، وهذا عكس الّذين انحرفوا عن الطّريق {الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ} فهم من اختار، ولم يستسلموا لما تدفعهم إليه فِطَرُهُمْ، اختاروا أن يذهبوا إلى الضّلالة، وكلّ يوم يزيد عليهم _ والعياذ بالله _ يزيدون ضلالة.

ولاحظوا الفعل أتى فعل الاستقبال {يُخْرِجُهُمْ} يعني: يُخرجهم ولازال يُخرجهم من كلّ ظُلمة في قلوبهم إلى النّور، وكلّ يوم يزدادون إيمانًا، كلّ يوم تنكشف عنهم ظُلْمَةٌ، في مقابل {الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ} الشّيطان وحُلفاؤه يُخرجونهم من نور الفطرة إلى ظُلمات الكفر والمعاصي، وهذا كلّه بسبب أنّهم لم يكفروا بهم: لم يكفروا بالطّاغوت.

هنا يأتي السّؤال: تأتي قصّة إبراهيم شاهدًا على أيّ شيء؟ هذا الكلام الّذي سيأتينا على إبراهيم عليه السّلام كأنّه يُقال: والنّموذج ما حصل لإبراهيم عليه السّلام؛ فالله يُخرج الّذي آمنوا {مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} وأهل الطّاغوت يخرجون الّذين كفروا {مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}.

ونحن هنا ننظر إلى إبراهيم عليه السّلام خاصّة، فكيف الله سدّد إبراهيم، الّذي هو نموذج المؤمنين لأنّه وليّه، وكيف خذل غيره، فالأمر واضح الآن أنّ هذه الآية استشهاد على ما ذُكر آنفا على أنّ الكَفَرة {أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ} وعلى أنّ المؤمنين وليّهم الله.

وبدأ بهذا الأمر العجيب وهو اجتراء إنسان على المُحاجَّة في الله، وكلامه كلّه يدلّ على حماقته، لكن من المؤكّد أنّ هذه الحماقة إنّما هي بسبب الظّلمة الّتي هو فيها؛ ونُلاحظ أنّ الخبر أتى ابتدأ بهمزة الاستفهام {أَلَمْ} يعني: ألم تنظر؟ ألم يأتك هذا الخبر؟ ألم تأتك هذه القصّة؟

فهذا الكافر الّذي لست بِوَلِيٍّ له، كيف تَصَدّى لمن أنا وليّه، ومن كان الله وليّه نَصرهُ {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} وهذا رِفعَة لمكانة إبراهيم عليه السّلام، وبَيانا لنُصرة ربّه له، وأيضا بَيان أنّ الّذي حاجّ إبراهيم في ربّه كيف أخرجه الطّاغوت من نور الإيمان الفطري الطّبيعي حتّى وصل حاله إلى أن ينسب الإحياء والإماتة إلى نفسه، لكن ستتبيّن هذه أحال القبيحة.

وهذا بالنّسبة لنا اليوم حال متكرّرة في مُجادلة أهل الإيمان سواء في الرّبوبيّة وأفعالها، أو في الألوهيّة وأفعال العبد، لأنّ الرّبوبيّة هي أفعال الله، والألوهيّة هي أفعال العبد، هذا الّذي حاجّ إبراهيم في ربّه كافر لا محال لأنّه في آخر الآيات {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} ونحن هنا الّذي يشغلنا هو إبراهيم عليه السّلام، فلاحظوا {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} فهنا الضّمير المضاف إليه ربّ عائد إلى إبراهيم، يعني: إلى ربّ إبراهيم، حاجّ إبراهيم في ربّ إبراهيم، والإضافة للتّشريف، لتشريف المُضاف إليه؛ فالمعنى هنا فيه إشارة إلى مكانة إبراهيم وأنّ هذه ربوبيّة خاصّة فيها العناية والرّعاية بشأن إبراهيم عليه السّلام.

والّذي يظهر أنّ إبراهيم عليه السّلام ابتدأ هذا الرّجل بعرض الحقّ عليه، وهذه من الابتلاءات الّتي ابتُلي بها.

وقد تكلّم المفسّرون في كون أنّ هذا كان قبل إلقائه في النّار، وتكلّم بعضهم أنّ هذا كان خارج بلاده، فهذا ما يشغلنا وإنّما الّذي يشغلنا الآن هو أنّ إبراهيم عليه السّلام ابتلي بهذا الّذي يُحاجّ في ربّ إبراهيم، ويقول له من ربّك؟ والرّجل الّذي يسأل عن ربّ إبراهيم مُبْتَلى بأنّ عنده مُلْكٌ {أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} وكأنّ هذه الجملة أتت من باب التّعليل، يعني: كأنّه لأنّ الله أتاه المُلك حاجّ في ربّه! فكأنّ إيتاء المُلك أورثه الكِبر والبَطر فنشأت المُحاجّة من هذا الشّيء، فوضع المُحاجّة موضع الشُّكر، لأنّه كان حقّه أن يشكر الله! وهذا مثل قوله تعالى في سورة الواقعة {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}[٣] يعني: أمام مِنَّةَ الله عليكم بالرّزق {تُكَذِّبُونَ} تكذّبون هنا بمعنى: ما تشكروا النّعمة، ما تشكرون إحسان الله إنّما تنسبونها لغير الله! لجهدكم! تنسبوها للأسباب! {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} فالكافر الآن هو مَلِكٌ ومتسلّط قادر على الظّلم، كما سيأتي الآن لمّا

[٣] [الواقعة: ٨٢]

يناقشه عن الرّبوبيّة؛ وإبراهيم عليه السّلام وحده ومعه عقيدة تُخالف عقيدة الملك المتجبّر، ابتلي به الآن، وهذا المعنى الّذي نبحث عنه، أنّه كيف له المكانة العظيمة.

فلمّا ابتلي به قال إبراهيم في هذه المُحاجّة وكأنّ الملك سأله من ربّك؟ قال: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} وهذه أقوى أدلّة الفِطرة أن تنظر خاصّة إلى فعل الإحياء والإماتة وتقول: هذا فعل لا يفعله إلاّ الله؛ فلو تركنا كلّ أنواع الأدلّة وتعال إلى هذا السّبيل المهمّ إلى معرفة الله فأنت تعرفه بواسطة أفعاله الّتي لا يشاركه فيها أحد أبدا، وأشهر أفعاله الّتي لا يشاركه فيها أحد _ الإحياء والإماتة _ لأنّ الخلق عاجزون عنها، فلا يمكن لإنسان عاقل أن يتجاهل هذا المعنى لأنّه لو قال له: أنا أستطيع أن أحيي، قيل له أحيي الآن وقم بهذا الفعل، ولكنّه فعل هذا الفعل!

يعني أنظروا لإبراهيم عليه السّلام كيف ذكر الدّليل في غايته هذه _ دليل غاية في الوضوح _ لكن هذا كان ردّه لمّا احتجّ بهذه الحُجّة الواضحة قال: {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} والآن ظهر الغباء وظهرت الظلمة الّتي هو فيها! ففيما يُروى أنّ الملك الكافر استدعى شخصين فقتل أحدهما واستبقى الآخر! وبهذا ظنّ نفسه أنّه أفحم إبراهيم! يعني أمام هذا الجمع العظيم يكون بهذه الحماقة!؟ لكن هكذا الظّلمة.

فإبراهيم عليه السّلام لمّا رآه على هذه الحالِ، حالَ من يُكابر ويُشبّه على من حوله، وهذا شأن كلّ الّذين يُحاجّون أنّه يتركك من نقطة المُحاجّة الحقيقيّة وينتقل بك إلى شأن آخر قد يشتبه في الظّاهر ولكنّه في الحقيقة ليس هو، فيأتيك بالمُغالطات لكي تَتُوهَ، فلمّا سار هذا السّير وكان من ولاية الله لإبراهيم عليه السّلام أن أنار الله بصيرته أمام هذا الطّاغية الّذي سلك مسلك التّلبيس والتّمويه على الرُّعاة، انتقل إبراهيم عليه السّلام إلى أمر ما تجري فيه المغالطة ولا يتيسّر لهذا الطّاغية أن يخرج عنها لا بمكابرة ولا بمشاغبة ولا بالتّلبيس على العوامّ، قال إبراهيم: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} إذا كنت كما تدّعي من أنّك تُحيي وتُميت فالّذي يحيي ويُميت هو الّذي يتصرّف في الكون سواء في خلق الكون أو في تسخير الكون أو في تسيير الكواكب، فهذه الشّمس تأتي كلّ يوم من المشرق فإذا كنت أنت صاحبها والقائم عليها {فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} فانتقل من حُجّة إلى أخرى أوضح منها.

وممكن يأتي أحد يقول: لماذا انتقل ولم يُناقشه في مسألة الإحياء والإماتة؟ نقول: لمّا يبدأ المُجادل بالشّغب من الأفضل الانتقال إلى شيء يُظهر عجزه، فانتُقِلَ إلى دليل جديد.

على كلّ حال يبقى أهل الإيمان وأهل التّقوى راغبين في النّور من ربّ العالمين وقت المُحاجّة خاصّة، والحقيقة ما يتصدّى لمثل هذا إلاّ من كان عنده علم، لكن نحن نترك مسألة المُحاجّة ولدّخول فيها ونفكّر فقط في إبراهيم عليه السّلام، ونفكّر في عطيّة الله له، ونفكّر كيف كان معه؟ ونفكّر كيف كان يُدافع عن هذه العقيدة؟ وهذا هو المهمّ أن نعرف بماذا تميّز؟

فلمّا قال له هذا {بُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} يعني: غُلِبَ وصار مَبهوتا منقطعا عن الكلام متحيّرا لاستلاء الحجّة عليه، فغلب إبراهيم عليه السّلام الكافر وأسكته، فكأنّه يُقال: لأنّه كفر لابدّ أن يُبْهَت! لماذا؟ لأنّ كُفره يجعل وِلايته للطّواغيت، للشّيطان فليس له نور من الله أبدا {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} ما يهديهم إلى مناهج الحقّ كما هدى أولياءه، لماذا؟ لأنهم هم الّذين اختاروا أن يتركوا هذا الحقّ، واختاروا أن ينظروا فيما يسّره الرّبّ سبحانه وتعالى لخلقه من الآيات، فانتفى هُدى الله للقوم الظّالمين، وثبت أنّ {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} فهم من سبّب السّبب _ فلا بدّ أن نعرف هذا الأمر _ لأنّ الظّلم حائل بين الإنسان وبين التّأمّل في الحُجج وبين التّفكير فيها، لأنّ هؤلاء الظّالمين عندهم من الكبر والزّهو والغرور ما يجعل كلّ الّذي يشغلهم هو أن ينتصروا في الكلام وأن يكون لهم مكانة وأن لا أحد يغلبهم في المُناقشات ويفلسفوها ويوسعوها من أجل أن يضيّعوا السّامعين ويذهبوا بقُواهم، فيحصل لهم الشّغب والتّشويش وبعد ذلك يتركونهم ضائعين، يُعجبون فقط بسَليط اللّسان كثير الكلام.

يقول الشّيخ السّعدي في قول الله تعالى: ({أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} **أي: إلى جراءته وتجاهله وعناده ومحاجّته فيما لا يقبل التّشكيك،**) فهذه صفته، أنّه يعاند، ويتجاهل الدّلالات العقليّة، (**وما حمله على ذلك إلاّ** {أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} **فطغى وبغى ورأى نفسه مترأّسا على رعيّته، فحمله ذلك على أن حاجّ إبراهيم في ربوبيّة الله فزعم أنّه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم** {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}) فهذا من فِقْهِ إبراهيم، ومن تأييد الله له، ومن تَبصيره له، (**أي: هو المنفرد بأنواع التّصرف، وخصّ منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التّدابير، ولأنّ الإحياء مبدأ الحياة الدّنيا، والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المُحَاجُّ:** {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} **ولم يقل أنا الّذي أحيي وأميت،**) وهنا لطيفة: فما أتى اسم الموصوف الدّالّ على الاختصاص، (**لأنّه لم يدّع الاستقلال بالتّصرف، وإنّما زعم أنّه يفعل كفعل الله ويصنع كصنعه، فزعم أنّه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه، فلمّا رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلّم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن كونه حجّة، اطَّرَدَ معه في الدّليل فقال إبراهيم:** {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ} **أي: عيانا يقرّ به كلّ أحد حتّى ذلك الكافر**) المقصود هو أنّ هذا الأمر مُقَرَّرٌ عندك ({**فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**} **وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه**) يعني: نقول لك: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} تقول لا {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} فإذَا كنت أنت الّذي يُدبّر فها هي الشّمس تخرج من المشرق فهاتها أنت إذًا من المغرب ({**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**} **أي: تحيّر فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجّته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الّذي يريد أن يقاوم الحقّ ويغالبه، فإنّه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى:** {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم،) ما يهديهم وما يدلّهم، **(وهم الّذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلاّ فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسّر لهم أسباب الوصول إليه،)** [٤]

المقصود أن نرى موطنًا من مواطن اختبار إبراهيم عليه السّلام وابتلائه بكلمات، وكيف كان إتمامها؟ وكيف كانت ولاية الله له؟ فأخرجه من الظّلمات إلى النّور وأراه الحقّ، وجعل له بصيرةً.

نحمد الله أن بيّن لنا، وفهّمنا، ونسأله أن يزيدنا ويبارك لنا، وينفعنا بهذا العلم، فنعرف كَمْ لله علينا من نِعَمٍ أن أحسن إلينا، فعلّمنا عن نفسه، وخلقنا على فِطْرَةٍ سويّة تَقْبَلُ هذا الحقّ، وتُحاجّ عنه.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

[٤] تيسير الكريم الرّحمن _ عبد الرّحمن السّعدي _ تفسير الآية ٢٥٨ سورة البقرة.